

الدراسات الثقافية والثورة المنهجية من التخصصية إلى البينية والفكر المركب

Cultural studies and the methodological revolution from specialization to interdisciplinarity and compound thinking

تاريخ الاستلام : 2023/04/27 ؛ تاريخ القبول : 2023/07/18

ملخص

تعد الدراسات الثقافية من أخصب الحقول المعرفية التي تشكلت وطروحات مابعد الحداثة، وجاءت كردة فعل ضد التطبيقات النقدية النصوصية والشكلية، بوصفها ممارسة تقوم على البينية. هذا وانصب اهتمامنا في هذه الورقة البحثية نحو التطرق إلى مفهوم الدراسات الثقافية وعلاقتها بالدراسات البينية والمابعد تخصصية، إضافة إلى محاولة الكشف عن العلاقة التي تربط بين الدراسات الثقافية والفكر المركب عند إدغار موران.

الكلمات المفتاحية: دراسات ثقافية؛ دراسات بينية؛ فكر مركب؛ ثورة منهجية؛ مابعد حداثة.

1 * عبد الكريم رزقي

2 د. فوزية بوالقندول

1 مخبر السرد العربي، جامعة قسنطينة 1، الجزائر.

2 جامعة قسنطينة 1، الجزائر.

Abstract

The cultural studies are considered to be one of the most fertile knowledge fields that appeared after the post modernity era. This came as a reaction against the textual critical practices as an activity based on interdisciplinarity.

Basing on that idea, our main focus in this research paper is on the clarification of the concept of cultural studies and its relation with the interdisciplinary studies and those post specialization. In addition, we will try to discover the relation between cultural studies and the compound thinking of Idgar Mouran.

Keywords: cultural studies ؛ interdisciplinary studies ؛ compound thinking ؛ methodological revolution ؛ post modernity.

Résumé

Les études culturelles sont considérées comme l'un des champs de connaissance les plus fertiles qui a été fondé sous l'influence des propositions postmodernes, et est venu en réaction contre les applications critiques formelles et textuelles, en tant que pratique basée sur interdisciplinaires. Notre intérêt pour ce document de recherche s'est concentré sur le concept d'études culturelles et ses relations avec les études interdisciplinaires et post-spécialisées, en plus d'essayer de révéler la relation entre les études culturelles et la pensée complexe d'Edgar Moran.

Mots-clés: études culturelles; études interdisciplinaires; pensée composée; révolution méthodologique; post-modernité.

* Corresponding author, e-mail: abdelkarim.rezgui@student.umc.edu.dz

I - مقدمة

يعد رونيه ديكارت (**René Descartes**) من أوائل الفلاسفة والمفكرين الذين أسسوا لمبدأ البحث المنهجي، إذ "يعد القرن السابع عشر هو قرن الاستفاقة النقدية على ضرورة وضع الطريقة للبحث عن الحقيقة"¹؛ أي إنه ومع ديكارت برزت ضرورة التوجه نحو النزعة المنهجية في بناء المعرفة الإنسانية والبحث عن الحقيقة.

غير أن القرن العشرين، من دون شك، هو زمن الاكتشافات الإنسانية التي مست مختلف جوانب الحياة، وهو عصر النجاح المنهجي وتطبيقاته، إذ "أصبح القرن العشرون، إذا جاز القول، عصر تجريب المناهج الأدبية. كما أن الحديث عن المنهج أصبح أمارة زمننا هذا ومؤشرا على الزمن العلمي"². ولم يكن النقد بمعزل عن هذا النزوع المنهجي فبرزت الدراسات النقدية التي تتناول الأدب بشكل منهجي-علمي، خاصة مع ما سمي بالمناهج النسقية (بنوية، سيميائية...); لذلك عرف بأنه عصر النقد والتطبيقات المنهجية.

فإذا كان النقد هو الفن الذي بواسطته يمكن للنقاد أن يقاربوا النصوص ويكتشفوا جمالياتها ووسائلها التعبيرية والفنية، وكذلك دورها في بناء العالم وتشبيد الصرح الإنساني، فإنه وخلال مرحلته المنهجية-العلمية- كان نقدا أدبيا/جماليا، داخليا، وشكليا(نصوصيا)، ومن ثم فإنه لم يجب عن تساؤلات النص من زواياه المختلفة، وبقي خاضعا للمناهج التي تملئ على الناقد ما يقوم به. فقد اقتصر دور الناقد -في ضوء هذا التحليل- على مواجهة النص انطلاقا مما يحمله في ذهنه من معرفة منهجية؛ محاولا إسقاطها على النصوص متناسيا خصوصياتها وبيئاتها وتوجهات مبدعها وقرائها وعلاقتها بالعالم الذي أنتجت فيه.

من هنا تحولت النصوص إلى ساحة تطبيق فيها المناهج الأمر الذي أنتج لنا كتابات نقدية بمثابة -رطانات- يحاول فيها الناقد إبراز طاقاته التعبيرية ودقته في تطبيق الآليات والأدوات المنهجية. فدخل النقد في ما يسميه عبد العزيز حمودة بـ"تية النصومية" أو "التية النقدي". بمعنى آخر أصبح هدف النقد/الناقد إنتاج النصوص النظرية فقط، دون اكتراث ويبحث عن علاقة هذه النصوص بالعالم الذي تعيش فيه؛ أي بعيدا عن السياقات الخارجية أو بعبارة إدوارد سعيد (**Edward W.Said**) دون مهمة تدخلية؛ حيث "لا يتوقف [سعيد] عن تنبيهنا إلى أن النقد هو شكل من المقاومة الجريئة للسلطة الإقصائية للثقافة، ولسلطة الخطابات، ولسلطة المناهج، ولسلطة الدولة"³.

غير أن طروحات العولمة وأفكار ما بعد الحداثة حملت معها رياح التغيير والتشكيك والمساءلة في مختلف المسلمات والنظريات السابقة. ها هنا برز القرن الواحد والعشرون بوصفه بؤرة للتحويلات والتحايلات النقدية والفلسفية والفكرية والعلمية، بمعنى آخر غدا عصرنا الحالي عصر التشظي بحيث زالت الفواصل والحدود وظهر التعقيد وتبدلت نظرتنا إلى العالم وإلى الأدوات التي ننظر بها إلى هذا العالم، وحمل معه رؤى جديدة للنقد ودوره، فما مصير النقد في ضوء هذا الإبدال الجديد؟.

II-النزعة التخصصية والأزمة النقدية:

أفرزت الدراسات النقدية المنهجية ما يمكن أن نسميه بالنزعة التخصصية لأن التطبيق الصحيح والدقيق للمنهج يقتضي من الناقد أن يكون أكاديميا ومتخصصا في ميدانه، ف"في إطار المعرفة العلمية يعدّ "التخصص" مفهوما تنظيميا أساسيا؛ إذ أنه يؤسس فيها لمبدأ توزيع المعرفة إلى ميادين علمية - أو تخصصات- متنوعة. وعلى

الرغم من أن أي تخصص يدخل في إطار كل معرفي أوسع وأشمل فالتخصص يميل عادة إلى الاستقلالية وذلك من خلال رسم حدود خاصة به، ووضع مصطلحاته اللغوية، وتحديد التقنيات – وربما النظريات- التي يوظفها. ومن أبرز الفوائد [ل]مبدأ التخصص تركيز القدرات العقلية المحدودة للإنسان (الفرد) على مجال معرفي محدد... كما ساعد العمل بمبدأ التخصص العلماء على تعميق أبحاثهم والاهتمام بالجزئيات والذرات"⁴.

ومن أهم سلبيات النزعة التخصصية والمنهجية أنها أسست لمبدأ الاكتفاء النقدي والمنهجي وأفرزت ميلا لدى النقاد "إلى الانغلاق داخل جزئيات علمية ضيقة جدا، وأنساهم ذلك أن "الشيء" الذي يدرسونه ليس إلا جزءا مقتطعا من كل، وانصرفوا بالتالي عن البحث عن علاقة ذلك الجزء بالأجزاء الأخرى من الكل وعلاقة تخصصهم بالتخصصات التي تدرس تلك الأجزاء الأخرى. وفي كثير من الأحيان أدت الحدود النظرية والموضوعية واللغوية لتخصص ما إلى عزله عن التخصصات التي تتداخل وتتقاطع معه بشكل طبيعي وجوهري. ويمكن القول إن روح التخصص قد أفرزت مبالغات غير مبررة في تقسيم بعض الميادين إلى "شعب" أولا وبعد ذلك إلى تخصصات جديدة مستقلة. كما أن تطور العلم والتكنولوجيا قد أدى إلى ظهور فروع علمية جديدة"⁵.

إن السؤال التخصصي والمنهجي-إذا جاز لنا القول- هو سؤال ذو منظور واحد؛ بمعنى أنه ينظر إلى الحقيقة من وجهة معينة، ويهمل الأوجه الأخرى بدواعي التخصصية. من هنا يمكن القول إن "النزعة التخصصية الفائقة" كما يسميها إدغار موران قامت "بتمزيق وتقطيع النسيج المركب للوقائع، ودفعتنا إلى الاعتقاد بأن التقطيع الاعباطي الذي أجري على الوقائع هو الواقع نفسه"⁶.

لكن السؤال الذي يُطرح -هاهنا-: هل نستطيع أن نقول إن النقد وصل إلى طريق مسدود؟؛ وإذا كان الحال كذلك ما هي البدائل التي تكفل مجاوزة هذا المطب المنهجي؟.

أسهمت الرؤية التخصصية والمنهجية -كما بينا- في تعزيز النزوع/الميل نحو التمرکز الفردي أو الجماعي حول منهج معين أو أطر محددة في ضوء نظرة مبسطة للنصوص وللعالم الذي نعيش فيه ف"لقد ثبت أن الصيغة المبسطة للمعرفة بدعوى إزالة الغموض والتعقيد عن الظواهر وبدعوى التخصص الدقيق، أنتجت في العلوم الإنسانية وفي النقد الأدبي، خاصة، نوعا من التمرکز حول نموذج منهجي معين وإخضاع الظواهر له... لذلك نجد من أن من بين الآثار الوخيمة التي نتجت عن هذا التوجه دعوى التخصص داخل التخصص، والتوقع في الجهة المقابلة للشمس من الظاهرة، وإبقاء المناطق الحالكة مغلقة على الأفهام"⁷.

ولعل هذا -من وجهة نظرنا- من أهم أسباب الفشل الذي تعانیه ثقافتنا على جميع الأصعدة؛ فإذا كان لكل تخصص علمي أو "قطاع معرفي أسئلته الخاصة التي لا تجد صداها في القطاعات المعرفية الأخرى فهذا دليل على وجود خلل واضطراب في اشتغال المجتمع وخلل في نموه وتطوره. وإذا ظل مثل هذا الأمر على هذه الحالة، فلن تكون هناك بالقطع نهضة فكرية ولن يقوم المجتمع سوى بإعادة إنتاج نفسه على شكل حالات نكوص وارتكاس متتاليين"⁸، وهذا يعني أن النقد في فترته المنهجية/التخصصية كان يعيش أزمة كبيرة وهو ما دعا النقاد والباحثين إلى تغيير المسار تجاه الدراسات البيئية.

III-الدراسات البيئية والثورة المنهجية والتخصصية:

حملت النظرة الما بعد حداثة الما بعد تخصصية معها بذور التجديد في الساحة النقدية فهي ترى أن "المنهج الواحد والأوحد خرافة لا يمكن أن تنتج عنها سوى الأوهام، فالقراءة تستند إلى فرضية يبررها وجود نص بيني معانيه استنادا إلى قوانين لا يمكن الكشف عنها إلا ارتكازا على تصورات تخص شروط إنتاج المعنى وشروط تداوله، وهي فرضيات لا تشكل منهجا بل يجب النظر إليها باعتبارها ترتيبات تحليلية قد تفيد من تصورات نظرية متعددة، فالناقد لا يبحث في النص عما يعرفه بشكل مسبق، بل يتدرجه التأويل إلى اكتشاف ما لم يتصوره من قبل"⁹.

وهو ما أدى إلى التأكيد على جدوى/أهمية الدراسات البين-تخصصية أو الدراسات البيئية (interdisciplinarity/interdisciplinary studies) التي تمثل أهم التوجهات البحثية التي برزت مع سقوط البنيوية وبروز الطروحات المابعدية- (مابعد البنيوية، مابعد الحداثة، مابعد الاستعمار...). ولعل الدراسات الثقافية تمثل أهم تجل من تجليات هذه النزعة الجديدة في البحث والمعرفة؛ خاصة وأنها مجال بيني بعد تخصصي فهي ترى بأنها ثورة ضد التخصصية وضد النزعة المنهجية. وربما هذا ماجعل إدغار موران في سياق قراءته "الحقل الفلسفي والإبستمولوجي والعلمي والمنهجي المعاصر يقر بهمينة منظومة التبسيط"¹⁰ والنزعة المنهجية التخصصية هي نزوع نحو التبسيط. وإذا استعرنا عبارة إدوارد سعيد يمكن القول إننا "نعلم مدى ارتباط الأدوات والمنهج بما تفرزه من معرفة وثقافة: إنها تقيد الرؤية وتحد البصر حتما"¹¹.

في الحقيقة وجب أن ندرك بعض الفروق المنهجية بين الدراسات البيئية والتخصصات البيئية، إذ يمكن أن نعرف الأولى بأنها "دراسات تعتمد على حقلين أو أكثر من حقول المعرفة الرائدة، أو العملية التي يتم بموجبها الإجابة عن بعض الأسئلة، أو حل بعض المشاكل، أو معالجة موضوع واسع جدا أو معقد جدا يصعب التعامل معه بشكل كاف عن طريق نظام أو تخصص واحد"¹².

في حين يمكننا أن نعرف التخصصات البيئية بأنها "نوع من التخصصات الناتجة عن حدوث تفاعل بين تخصصين أو أكثر مرتبطين أو غير مرتبطين، أو أنها العلوم والدراسات التي تبحث في إدراك العلاقات بين فروع العلم والمعرفة على أساس مبدأ وحدة المعرفة وتكاملها، للوصول إلى مفاهيم مشتركة بين مختلف العلوم والتخصصات"¹³ وكلا النشاطين هدفه تجاوز جمود المنهج والنزوع نحو التخصص.

وقد كانت الحاجة إلى هذين الحقلين نابعة من رغبة الباحثين والمفكرين الغربيين بشكل خاص في الإرتقاء بأفكارهم البحثية، وتجاوز الحدود المرسومة أمامهم. ومواكبة التغيرات التي يواجهها الإنسان في ضوء العالم الجديد؛ فالدراسات البيئية إذا "نشاط معرفي عرفه الفكر الغربي بعد عجز المنظور المنهجي التخصصي عن تقديم أجوبة مقنعة على كثير من التساؤلات العلمية، ومن منظور فلسفة العلم جاء الفكر البيئي ليقدم نموذجا معرفيا يقوم مقام النموذج العقلاني الاختزالي التبسيطي، هو نموذج التعدد والتعقيد، الرافض لحصر البحث العلمي في إطار المنهج"¹⁴ ومن ثم سيكون مدار العمل في ضوء الدراسات/التخصصات البيئية تجاوزيا؛ أي إنه يحاول "الإرتقاء من مجرد جمع وتنضيد الرؤى البحثية المتنوعة والتعاون على كشف جوانب مختلفة من الموضوع نفسه إلى التفاعل الحقيقي، والتبادل الفعال وتأثير التخصصات بعضها في بعض بل الاندماج أحيانا"¹⁵.

وهذا يفارق النزعة التكاملية التي برزت مع النقاد الحداثيين العرب مثلا (سيد

قطب، عبد الملك مرتاض...)؛ حيث إن تصورات هؤلاء حول التكاملية تقتضي الإجابة عن أسئلة النص الجمالية والفنية انطلاقاً من مزج العديد من المناهج النقدية دفعة واحدة فهي كما يعرفها الدكتور يوسف وغيلسي "ضرب مختلف من ضروب النقد، لا يفيد بمنهج واحد خلال العملية النقدية، بل يستعين بجملته من المناهج التي يقتضيها الطابع التركيبي المعقد للنص الأدبي"¹⁶؛ بمعنى آخر تقوم النزعة التكاملية في رؤيتهم على استعارة أدوات نقدية من مناهج مختلفة ومحاولة استثمارها في استنطاق النصوص من جوانبها المتعددة بغية الوصول إلى الكمال المنهجي وهذا أمر مستحيل التحقيق عملياً.

وسنحاول ذكر بعض الفروق بين المناهج التكاملية والدراسات البيئية في مجموعة من النقاط نوردتها كما يلي:

1. تستعين/تستعير الدراسات البيئية أدواتها وأفكارها من مختلف النظريات والأطروحات الفلسفية، الأدبية، العلمية، الاجتماعية، التاريخية، والسياسية، ولا يكمن هدفها الأساس في التركيب والتجميع وإنما في التفاعل الإيجابي بينها، عكس النقد التكاملي.

2. تسعى الدراسات البيئية إلى كسر الوثوقية والمركزية التي تتميز بها المناهج النقدية، إضافة إلى أن الهدف الأساس من استعارتها من التخصصات المجاورة لها، هو بناء معارف جديدة تساعد في إنارة جوانب كانت مغيبة عن الوعي الإنساني.

3. لا تلتزم الدراسات البيئية بما تقوله المناهج والنظريات، وإنما تسعى إلى تطويعها بما يخدم المواضيع المدروسة؛ بمعنى آخر، تأخذ الدراسات البيئية الأدوات النقدية من منابع مختلفة ولا تحتفظ بما ورد في مصادرها بشكل دقيق، وإنما تسعى لتطويعه بما يخدم توجهاتها، مثلما فعل إدوارد سعيد في كتابه "الثقافة والإمبريالية" أين استعار مصطلح الطباقية من الموسيقى وطبقه في صميم قراءاته للنصوص في فترة ما بعد الاستعمار.

4. تعبر الدراسات البيئية عن نزعة إنسانية ما بعد حداثة ناتجة عن "الإيمان المتنامي بأن التغيير هو الثبات الوحيد، وأن اللايقين هو اليقين الوحيد؛ إذ كانت الحداثة في المئة عام الماضية، تعني محاولة الوصول إلى حالة نهائية "من الكمال"، أما الآن فإن الحداثة تعني عملية تحسين وتقدم لا حد لها، من دون وجود "حالة نهائية" في الأفق، ومن دون رغبة في وجود مثل هذه الحالة"¹⁷.

5. تحوّل وظيفة ودور النقد في العالم المعاصر إذ "أصبح النقد اليوم مصدراً مهماً لصناعة التأويلات، وإدارة حسن التعدد، وهو ما يفرض على المشتغل بالدراسات النقدية بأن يفهم الظواهر على أنحاء مختلفة ومتعددة... [ف]متطلبات العقل المعاصر تنبني على التأويل، نظراً للطبيعة المركبة للخطابات لارتباطها بالطبيعة المركبة للإنسان وتحولات الفكر والواقع المعاصر"¹⁸، وهو ما يبرر التوجه نحو البيئية.

6. تعد الدراسات البيئية الوجه الآخر للفكر المركب الذي من وظائفه الأساسية الإيمان "بإمكانية تجميع وتوحيد المتعدد، وهدفه هو تفجير المباحث ولما داخل أفق مركب جديد"¹⁹.

وثمة أربعة جوانب هامة للدور الذي يمكن أن تلعبه الدراسات البيئية في عالم

اليوم، وتتمثل في:

1. دمج المعرفة: إذ من خلال الدراسات البيئية يمكن "صياغة برنامج يجمع بين عدد من التخصصات"²⁰ وذلك من أجل الـ"نعتاق [ب]المعرفة من صرامة الارتهان إلى تخصص علمي دقيق"²¹.
2. الإبداع في طرق التفكير: **modes of thinking** وتعني "تطوير القدرة على عرض القضايا ومزج المعلومات من وجهات نظر متعددة لتحدي الافتراضات التي بنيت عليها وتعميق فهمها"²² وهذا الجانب هو ما تسعى الدراسات الثقافية إلى التأسيس له.
3. تحقيق التكامل: **integration** ويعني "إدراك ومواجهة الاختلافات بين التخصصات المختلفة؛ للوصول إلى وحدة المعرفة المتكاملة، والأكثر شمولاً من المسموح به من قبل رؤية أي تخصص واحد، فالدور الرئيسي للدراسات البيئية هو تحقيق التكامل بين المعرفة وطرق التفكير لاثنتين أو أكثر من التخصصات"²³.
4. إنتاج المعرفة **knowledge producing** إن الحاجة إلى الدراسات البيئية أصبحت الآن "أقوى من أي وقت مضى، ويرجع ذلك إلى أن، العديد من المشاكل المتزايدة التي تهم المجتمع لا يمكن أن تحل بشكل كاف عن طريق تخصص واحد معين"²⁴.

IV- الدراسات البيئية والدراسات الثقافية:

سنركز في هذا المبحث على محاولة استثمار معطيات وطروحات الدراسات الثقافية **Studies Cultural** في مجاوزتها للأسئلة التخصصية والمعرفية ومناذاتها بالبيئية، وذلك بغية التغلب على الصعوبات المنهجية، ومجازرة الأزمة التي يواجهها النقد انطلاقاً من قراءة ثقافية-ساسية، تدخلية، تسائل كل الممارسات الإنسانية على أنها "ممارسات دالة"²⁵ كما يرى جوناثان كولر من غير فصل بين مركز وهامش.

يمكننا في البدء القول إن الدراسات الثقافية هي تجل من تجليات العالم المعاصر إذ "إنه، ومهما قيل عن الأصول المعرفية للدراسات الثقافية فلن يفي بالغرض، لأن تلك الدراسات تتمثل روح العصر الذي نعيش فيه، والذي ينتمي فكرياً لفترة ما بعد الحداثة ويتمتع بخاصيتها الداعية لتحرير الإنسان مما يحد من مجال تحركه الفكري والحياتي"²⁶.

ذلك أن الدراسات الثقافية هي عبارة عن "تشكل ثقافي أفرزته ممارسات نقدية رائدة في الفكر الإنساني. ولهذا ليس مستغرباً وليس قدحاً أن نقول إن الدراسات الثقافية أخذت أهم استراتيجياتها من نظريات قائمة، وأفادت منها كثيراً في دراسة ظواهر كانت خارج منظور تلك النظريات"²⁷. ولعل هذا ما يجعل "الدراسات الثقافية منفتحة على مناهج وتخصصات كثيرة ومتجاوزة لها في الآن نفسه"²⁸ أو بعبارة أصحاب دليل الناقد الأدبي يجعلها "ظاهرة كرنفالية"²⁹.

يرى بول ويليس في تقديمه لكتاب "الدراسات الثقافية النظرية والممارسة" (**Cultural Studies Theory And Practice**) أن الدراسات الثقافية هي "واحدة من الحقول المعرفية لما بعد تخصصية التي تتميز بالتركيب والانتقائية في معالجة المسائل الثقافية التي تعبر عن التعقيد الذي يحيط بنا في العالم المعاصر"³⁰.

أما كريس باركر فيرى بأن "الدراسات الثقافية هي، وكانت دائماً، حقلاً معرفياً نقدياً متعدد-أو ما بعد تخصصي، يقوم على طمس الحدود بينه وبين الموضوعات الأخرى... بالنسبة لهول يتمثل الرهان النقدي الذي تتأسس عليه الدراسات الثقافية في سعيها إلى كشف الارتباط بين مسائل السلطة والسياسات الثقافية"³¹، بمعنى آخر تعد الدراسات الثقافية "تشكيلاً خطابياً؛ إي إنها مجموعة أو تعنقد من الآراء، الصور والممارسات. والتي توفر طرقاً للحديث عن أشكال المعرفة والسلوك المرتبط بموضوع معين، أو نشاط اجتماعي أو موقع مؤسسي في المجتمع. كما يرى هول"³².

ولعل هذا التعقيد الذي يسم الدراسات الثقافية نابع من التعقيد الذي يسم مفهوم الثقافة نفسه إذا لظالم "كانت الثقافة ولا تزال مبحثاً بينياً إشكالياً، بها تتجسد قدرة الإنسان على أن يكون كائناً اجتماعياً"³³ من هنا فإن "مشروع الدراسات الثقافية، بمفهومها العريض، هو [سعي] لفهم اشتغال الثقافة لاسيما في العالم الحديث"³⁴. ومفهوم الثقافة الذي تشتغل عليه الدراسات الثقافية "هو ذلك المعنى المرتبط بمفهوم الهيمنة، ومفهوم الشفرات الثقافية لدى كل من أنطونيو غرامشي وميشال فوكو"³⁵.

ويمكن أن نحصر مدار اشتغال هذه الدراسات ومجال اهتمامها في ضوء هذا المفهوم المعقد للثقافة في "المساجلات النظرية [التي أثيرت] حول المعنى، والهوية، والتمثيل، والفاعلية UGENCY"³⁶.

إن الدراسات الثقافية تستقصي بالبحث من أجل "الكشف عن القوة وتمثيلات الهوية وصورة الآخر لدى الذات وعن الأصوات المقموعة في الطبقات الاجتماعية المختلفة، وكيفية تمظهرها في الأشكال الإبداعية اليومية ومن ضمنها الأدب"³⁷، لقد عالجت الدراسات الثقافية "قضايا ملحة في فضاءات ثقافية مختلفة، كالعلاقة بين الثقافة والتحيزات، كما كرست استراتيجياتها للكشف عن التواطؤ الأيديولوجي بين مختلف فضاءات الثقافة، وكذلك العلاقة بين المؤسسة وفرضياتها المختلفة"³⁸.

وقد كشفت المساءلات الثقافية-السياسية التي تمارسها الدراسات الثقافية "زيف فرضياتنا المسبقة وهشاشة أسسها ومسلّماتها غير المنقودة، فأصبحنا أشد وعياً بدور الثقافة (أي النظام الدلالي) في تكوين معرفتنا وطرق تفكيرنا بل حتى الكيفية التي بها تتشكل أحاسيسنا وعواطفنا"³⁹.

فما مفهوم النقد في تصور الدراسات الثقافية؟

لعل المفهوم الذي تقدمه الدراسات الثقافية للنقد والذي تتكئ عليه في ممارساتها هو عبارة عن "حركة فكرية شاملة تحتضن القضايا السياسية والاجتماعية والفلسفية والنفسية"⁴⁰. فالنصوص أياً كانت هي عبارة عن حوادث ثقافية دنيوية كما يرى إدوارد سعيد وهي "فريسة الوقوع في شرك الطرف والزمان والمكان والمجتمع، وباختصار، فهي في الدنيا ولذلك فإنها دنيوية"⁴¹.

إن الدور المنوط بالناقد في ضوء هذا الدراسات هو الانطلاق في حركة جدلية من العالم صوب النص وصولاً إلى الناقد. بمعنى آخر؛ فالناقد لا يركن إلى النصوص ولا يكتفي بها وفي الوقت نفسه لا يحاول إسقاط ما هو موجود في العالم الخارجي على النصوص ولا يلغي وظيفته الأساسية وهي التدخل في الشؤون العامة وإبداء الرفض والمقاومة. وإنما مهمته هي مهمة جدلية من النص إلى العالم ومن العالم إلى النص.

V-الفكر المركب والدراسات الثقافية:

ينطلق هذا المبحث من السؤال التالي: ما العلاقة بين الدراسات الثقافية والفكر المركب؟

قلنا في بداية حديثنا إن النزعة التخصصية والمنهجية أنتجت في أغلب الأحيان معرفة مجزأة واختزالية وغير متكاملة، مما يجعلها قاصرة عن الإجابة على أسئلة النص من جوانبه المختلفة؛ وذلك انطلاقاً من أن " كل معرفة [تشتغل] عبر انتقاء المعطيات الدالة وطرح المعطيات غير الدالة: فهي تفرق (تميز أو تفصل) وتوحد (تجمع وتطابق)؛ ترتب (الأساسي، الثانوي) وتمركز (على ضوء نواة من المفاهيم الكبرى). في الواقع، إن هذه العمليات التي تستخدم المنطق هي موجهة بواسطة مبادئ) فوق منطقية) لتنظيم الفكر أو بواسطة منظومات. إنها بمثابة مبادئ تحكم رؤيتنا للأشياء والعالم من دون أن نشعر بها" 42. من هنا تأتي في -اعتقادنا- ضرورة التوجه نحو الفكر المركب الذي يسعى إلى "عرض تمفصلات ميادين تخصصية ثم تحطيمها من طرف الفكر الفاصل (الذي هو أحد المظاهر الكبرى للفكر البسيط)؛ وهو الفكر الذي يعزل ما يقوم بتفريقه ويحجب كل ما يصل ويتفاعل ويتداخل. بهذا المعنى، فإن الفكر المركب يتطلع إلى المعرفة متعددة الأبعاد. بيد أنه يعرف منذ البداية استحالة المعرفة الكاملة. فإحدى مسلمات التعقيد هي استحالة وجود علم بكل شيء حتى على مستوى النظرية، متبعة في ذلك قول أدورنو: "الكلية هي اللاحقة". إنها تتضمن الاعتراف بمبدأً لللاتكامل ولللايقين" 43. ومن ثم ف"إننا نحيا تحت سلطان مبادئ الفصل والاختزال والتجريد التي تشكل في مجموعها ما أسميه بـ"منظومة التبسيط" 44.

ويمكننا أن نجمل أهم مبادئ وخصائص الفكر المركب في النقاط التالية:

1. التركيب والتفاعل والتداخل. إن الفكر المركب "يتطلع إلى معرفة متعددة الأبعاد" 45
2. الإيمان بوجود علاقات ظاهرة أو خفية بين العناصر المختلفة إذ إن من مبادئه الأساسية الاعتراف "بالروابط الموجودة بين الكائنات التي يجعل على تفكيرنا بالضرورة أن يميز بينها، لا أن يعزل بعضها عن البعض الآخر" 46.
3. رفض الكلية والإيمان باللاتكامل واللايقين فهو بحث دائم عن الحقيقة؛ إذ يحيا الفكر المركب "بتوتر دائم بين التطلع إلى معرفة غير مجزأة غير مقطعة وغير مختزلة، وبين الاعتراف بنقصان وعدم اكتمال المعرفة" 47.
4. الإيمان بالتعقيد الذي يلف الظواهر الكونية والإنسانية إذ "لا يمكن لكلمة تعقيد إلا أن تعبر عن حيرتنا وارتباكنا وعجزنا عن أن نحدد (الأشياء) بشكل بسيط، وأن نسميها بوضوح وأن نرتب أفكارنا" 48.
5. إن الدراسات الثقافية تقوم على "إنتاج المعرفة النقدية بوصفها ممارسة" 49، قائمة على "التوتر" 50 والمزاوجة واللاتكامل والحوارية بين الآراء والأفكار والتصورات. إنها تعبير صريح عن فكر مركب ونظرة معقدة وغير اختزالية للقضايا والمسائل التي تواجه الإنسان في العالم والثقافة المحيطة به. رغم أنها ملتزمة سياسياً و"تفكر دائماً في التدخل في عالم ستحقق فيه تغييراً ما" 51.

VI-خاتمة: وقد خلص بحثنا إلى مجموعة من النتائج نوردها كما يلي:

- تسعى الدراسات البيئية إلى تجاوز المعضلات التي تواجه الممارسات المنهجية والنقدية، وذلك من خلال المزج والتفاعل بين المعارف والأطروحات والتخصصات.
- تعد الدراسات الثقافية من أهم المجالات المعرفية التي تقوم على البيئية والمابعد تخصصية في دراساتها، وهي تشكل مظلة تدرج تحتها العديد من الدراسات

الأخرى مثل دراسات ما بعد الاستعمار والنسوية...؛ وهي تنكئ على الانتقائية والتجاوز، وتعتبر كل الممارسات الإنسانية ممارسات دالة تقع خلفها سلطة ما تستوجب المساءلة والنقد.

- أخلت المنظومة التبسيطية التي سيطرت على التفكير الإنساني لعقود طويلة على إنتاجية المعرفة وجعلتها محدودة بحدود التخصص، وأخضعها للتجزئية ومنعت التفاعل والتضايغ بين الأفكار والمعارف، لهذا كان لزاما لتجاوز هذه المعضلات المنهجية التوجه نحو الفكر المركب الذي من أساسياته التعقيد والبيئية واللاتكاملية.

- الدراسات الثقافية هي رؤية مابعد حدائية للعالم، تعتمد بشكل جدي، في طروحاتها على البيئية، وعلى التعقيد واللاتكاملية التي تسم الفكر المركب، بغية مساءلة الممارسات الإنسانية في ضوء الثقافة.

الهوامش والإحالات:

- 1- ديكارت رونييه ، قواعد لتوجيه الفكر، ترجمة وتعليق: سفيان سعد الله ، د.ط، دار ساس، تونس، 2001، ص9-39.
- 2- بولان إلفي ، المقاربة التداولية للأدب، ترجمة: محمد تنفو وليلى أحمياتي، مراجعة سعيد جبار، ط1، دار رؤية، مصر، 2018، ص23.
- 3- بن علي لونيس ، إدوارد سعيد: من نقد خطاب الاستشراق إلى نقد الرواية الكولونالية(كيف نؤسس للوعي النقدي؟)، ط1، دار ميم، الجزائر، 2018، ص15.
- 4- عمشوش مسعود من التخصص إلى الدراسات البيئية، تاريخ النشر: 28. مارس. 2011. تاريخ الزيارة: 22. ديسمبر. 2022. متاح على الشبكة: [من التخصص إلى الدراسات البيئية – مهارات \(mahaarat.com\)](#) .
- 5- عمشوش مسعود ، من التخصص إلى الدراسات البيئية.
- 6- موران إدغار، الفكر والمستقبل: مدخل إلى الفكر المركب، تر أحمد القصور، ومينير الحجوجي، ط1، دار توبقال، المغرب، 2004، ص15.
- 7- بلعلي آمنة، العقل النقدي المعاصر: إمكانات الاختلاف ومشروعية الاستئناف، ط1، دار التنوير، الجزائر، 2022، ص15.
- 8- بن كراد سعيد ، السرد الروائي وتجربة المعنى، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2008، ص17.
- 9- السرد الروائي تجربة المعنى، ص7-8.
- 10- موران إدغار ، الفكر والمستقبل: مدخل إلى الفكر المركب، مقدمة الترجمة، ص5.
- 11- الرويلي ميجان البازعي سعد، ، دليل الناقد الأدبي: إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا، ط3، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2002، ص143.
- 12- عبد المعز الجمال رانيا ، الدراسات البيئية وبعض التجارب العالمية، المؤتمر الدولي: اللغة العربية والدراسات البيئية الأفاق المعرفية والرهانات المجتمعية، مركز

- دراسات اللغة العربية وآدابها، المجلد الأول، 2015، المملكة العربية السعودية، 2018، ص1014.
- 13- الدراسات البيئية وبعض التجارب العالمية، ص1014.
- 14- مكاي محمد ، الدراسات البيئية: المفهوم والأصول المعرفية، مجلة جسور المعرفة، مجلد 7، عدد 5، ديسمبر 2021، الجزائر، ص271.
- 15- بن جود نور الدين ، دليل الدراسات البيئية العربية: في اللغة والأدب والإنسانيات، مركز دراسات اللغة العربية وآدابها، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، د.ط، د.ت، ص12.
- 16- و غليسي يوسف ، مناهج النقد الأدبي، ط1، دار جسور، الجزائر، 2007، ص 35.
- 17- باومان زيجمونت ، الحدائث السائلة، ترجمة: حجاج أبو جبر، تقديم: هبة رؤوف عزت، ط1، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، لبنان، 2016، ص26.
- 18- بلعلی آمنة ، العقل النقدي المعاصر: إمكانات الاختلاف ومشروعية الاستئناف، ص ص 9-10.
- 19- مورون إدغار ، الفكر والمستقبل: مدخل إلنا لفكر المركب، ص07.
- 20- عبد المعز الجمال رانيا ، الدراسات البيئية وبعض التجارب العربية، ص1017.
- 21- بلعلی آمنة ، العقل النقدي المعاصر: إمكانات الاختلاف ومشروعية الاستئناف، ص21
- 22- الدراسات البيئية وبعض التجارب العربية، ص1017.
- 23- المرجع نفسه، ص 1017.
- 24- المرجع نفسه، ص 1018.
- 25- كالر جوناثان، 2004، النظرية الأدبية، ترجمة: رشاد عبد القادر، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، د.ط، ص55.
- 26- حيولة سليم ، استراتيجيات النقد الثقافي في الخطاب المعاصر: من القراءة الجمالية إلى القراءة الثقافية -بحث في الأصول المعرفية- تقديم ومراجعة وحيد بن بو عزيز، ط1، دار ميم، الجزائر، 2021، ص223.
- 27- دليل الناقد الأدبي، ص148.
- 28- استراتيجيات النقد الثقافي في الخطاب المعاصر، ص225.
- 29- دليل الناقد الأدبي، ص139.
- 30- barker Chris, cultural studies: theory and practice, forward by paul willis, second edition, sage publications, London, 2003 , p xx.
- 31- parker Chris, p 5.
- 32- parker Chris, p 6.
- 33- العقل النقدي المعاصر، ص198.
- 34- النظرية الأدبية، ص56.

- 35- استراتيجيات النقد الثقافي في الخطاب المعاصر، ص220.
- 36- النظرية الأدبية المعاصر، ص ص5-6.
- 37- استراتيجيات النقد الثقافي في الخطاب المعاصر، ص216.
- 38- دليل الناقد الأدبي، ص148.
- 39- دليل الناقد الأدبي، ص142.
- 40- السرد الروائي وتجربة المعنى، ص25.
- 41- سعيد إدوارد، العالم والنص والناقد، ترجمة: عبد الكريم محفوظ، د.ط، منشورات اتحاد الكتاب العرب، سوريا، 2000، ص41.
- 42- الفكر والمستقبل: مدخل إلى الفكر المركب، ص14.
- 43- الفكر والمستقبل، ص10.
- 44- الفكر والمستقبل، ص15.
- 45- الفكر والمستقبل، ص10.
- 46- المرجع نفسه، ص10.
- 47- المرجع نفسه، ص10.
- 48- المرجع نفسه، ص9.
- 49- هول ستيوارت، الدراسات الثقافية وإرثها النظري، في كتاب: غيش المرايا: فصول في الثقافة والنظرية الثقافية، إعداد وترجمة وتقديم، خالدة حامد، ط1، منشورات المتوسط، إيطاليا، 2016، ص61.
- 50- الدراسات الثقافية وإرثها النظري، ص72.
- 51- الدراسات الثقافية وإرثها النظري، ص76.